

أسباب قساوة القلب

حدثكم في الأسبوع الماضي عن الآية التي تقول: "إن سمعتم صوته، فلا تقسوا قلوبكم". وتكلمنا عن قساوة القلب في الحياة الروحية ومظاهرها، وضرينا لها أمثلة... وتكلم اليوم عن أسبابها...

حلاوة الخطية:

من أهم الأسباب لقساوة القلب، حلاوة الخطية، كما يقول سليمان الحكيم:

"المياه المسروقة حلوة، وخبز الخفية لذيذ".

+ حلاوة الخطية تضع غشاوة بين الإنسان ومحبة الله، فيتقسي القلب. وهكذا حدث منذ البدء، في قصة حواء والشجرة...

نظرت المرأة، فإذا الشجرة شهية للنظر، وبهجة للعيون وجيدة للأكل. وحلاوة الخطية، أنستها الوصية، وقست قلبها...

ومن أهم الأمثلة في هذا المجال، قصة شمشون نذير الرب:

كان روح الرب قد حل عليه. ولكنه لما أحب دليلاً، وأخطأ، تقسى قلبه فلم يعد يسمع صوت الروح فيه. وعلى الرغم من اتصال المرأة بأعدائه ضده، ومعرفته بذلك، إلا أن حلاوة الخطية سدت أذنيه عن سماع إنذارات الله، حتى ضاع الجبار...

الخطيئ كلما يصله صوت الله، تسد حلاوة الخطية أذنيه، فيتقسي قلبه ولا يسمع ولا يستجيب. ويتحول إلى شخصين: أحدهما رقيق جدًا في محبته للخطية، والآخر قاسيًا جدًا في صدوده عن الله...

مثل زوجة أب، توغر صدره ضد أبنائه، فيصير قاسيًا في معاملته لهم، بينما يكون رقيقًا جدًا في معاملته لزوجته...

وهكذا نحن في الخطية: الحب والرقرة والاستجابة نعطيها للشهوة، أما القسوة والصدود فنعطيها لله.

وفي شعورنا بحلاوة الخطية، ندخل في ازدواج الشخصية.

وكما قال بولس الرسول: "الشر الذي لست أريده، إياه أفعل" (رو7: 19). (لست أريده) تعني صوت الروح فيه، أما (إياه أفعل) فتعني القلب الراض لله الذي يصد الروح.

كطالب أيام الامتحانات، صوت يقول له قم للمذاكرة، مستقبلك، دروسك... وحلاوة النوم تقسي قلبه، لينتظر ويتماهل متمتعًا بالنوم وهكذا بنفس الشعور لا يقوم العابد للصلاة...

حلاوة الخطية توجد منافسًا لله في القلب، فلا يستجيب لله.

مثل قصة الشاب الغني، الذي أتى للمسيح، طالبًا نصحه، طالبًا للأبدية، ولكن محبة المال قست قلبه فمضى تاركًا الرب.

ما الذي قسى قلب فرعون؟ إنها حلاوة الخطية أيضًا...

في كل ضربة، كان يطلب التوبة، ويعد الله وعودًا. ثم يعود فيرجع... كيف يمكنه أن يتخلى عن أكثر من 400 ألف يعملون أعمال بالسخرة. لذة التمتع بهذا الربح، منعت عنه التوبة...

كالذي يكذب، ويجعل طبييًا يكذب، ليحصل على أجازة مرضية... كلما يقول الروح له إنها خطية، تسكت ضميره، حلاوة الاجازة!

ثم تدخل هنا (العقلانية) فتحاول أن تسكت ضميره، وتبرر له الأمر، وتتهمه بالحرفية، وتعذره بأن الأمر مألوف...!

ومن أمثلة تأثير حلاوة الخطية، امرأة لوط...

وصلها إنذار الرب، وسمعت صوت الملاكين، وسمعت لوطًا يعط أصحابه، ورأت الملاكين يدفعانها وباقي الأسرة للخروج حتى لا يقفوا في كل الدائرة. ولكن حلاوة الخطية قست قلبها: كيف أترك أموالني، وتعب السنين كلها، أحققًا احترق كل هذا؟ ليتني أنظر للوراء لأبصر... ونظرت فهلكت...

حلاوة الخطية تقسي القلب، وإن دفعه الروح للتوبة، يؤجل!

أنا مقتنع بخطأي، لا بد أن أتوب. ولكن لماذا الآن؟ من أجل حلاوة الخطية، أنتظر قليلًا، وأتوب بعدئذ.

في التأجيل قساوة قلب. الروح يدعو، فنقول ليس الآن!

لم يعد القلب حساسًا لصوت الله كما كان قبلاً. لم تعد المشاعر حارة ومستجيبة ولا مهتمة بعمل الله وبمحبتة! عبارة "هذا الأمر يحزن الله"، فقدت تأثيرها على القلب القاسي.

الصحة الشريرة:

+ ومن ضمن الأشياء التي تقسى القلب: الصحة الشريرة.

لو عاشرت أناسًا حساسين نحو الله، يمتلئ قلبك حساسية. ولو عاشرت أناسًا لا يهتمون بالروحيات، فإنهم يقسون قلبك.

مثال ذلك أخاب الملك. الذي قست قلبه زوجته إيزابيل ...

علمته كيف يقتل الأنبياء ويضطهد الأبرار. وخذوا مثالًا، تصرفه مع نابوت اليزرعيلي. أراد أخاب أن يأخذ حفل نابوت، فرفض نابوت أن يتنازل عن ميراث آبائه، فمضى أخاب إلى بيته مكتئبًا مغمومًا (1مل21) ورأته إيزابيل هكذا، فوضعت له الخطة: يقتل نابوت.. يتهمه أولاً بالتجديف على الله، ويجلب عليه شهود زور، ويحكم عليه بالموت... وتقسى قلب أخاب، فقتل نابوت.

ولد صغير، تغرية صحبة شريرة بالتدخين، فيهاب الموقف، ويخاف ويرفض ولكنهم يشجعونه، ويقسون قلبه، حتى يبدأ، ويظنون به حتى يصير التدخين له عادة، بلا خوف...

أذكر أنني قرأت مرة كتابًا عن الهيبز والبيتلز، وكيف علموا زملائهم الإباحية، وقسوا قلوبهم فعملوهم القتل أيضًا...

كان هؤلاء يخافون، ولكنهم شجعوهم، وأمرهم باغتياالات وفسوا قلوبهم فنذوا، وتطوروا إلى شرب الدماء...

العقلانية الشريرة:

صوت الله يمنع الإنسان من الخطية، لكن الصحة الشريرة تقول له: "إفعل ولا تخف"، فيفعل بلا خوف، ويتقسى قلبه...

وإن رفض، يتهمون عليه: "هل أنت من الدقة القديمة!" وبالإقناع وبالإغراء وبالسخرية وبالإلحاح، يتقسى قلبه، ويصير مثلهم...

ربما تكون الصحة الشريرة أناسًا، وربما تكون كتبًا وأفكارًا...

كإذاعة متطفلة تشوش على إذاعة واصلة إليك. كلما تحاول أن تسمع، تشوش عليك الإذاعة الدخيلة، هكذا العقلانية الشريرة، التي تشبعك براهين وأفكارًا، تغير بها مبادئك، وتقسي قلبك...

مثل شاب صغير في بلاد الغرب، يقابله بعض الشباب، ويحدثونه عن الحرية حديثًا قد لا يقبله أولًا، ولكنهم يلحون عليه:

ما سلطان المجتمع عليك؟ ما سلطة الوالدين؟ ما سلطة الدولة؟ أنت حر، إفعل ما تشاء. لا تفقد شخصيتك، لا تفقد كرامتك، لا تخضع لرأي غيرك... وهكذا يتقسى قلبه، فلا يعود يحترم أحدًا، أو يطيع أحدًا. ويظن أن هذه هي الحرية!!

إنها العقلانية الشريرة، والأفكار الجديدة، التي تقسي القلب. إنها ليست تقسية مؤقتة، بل دائمة، لأنها تغيير للقيم والمبادئ.

العوائق:

قد يتقسى القلب أيضًا بالعوائق، بالأعداء، كعذراء النشيد.

ناداها الرب أن تفتح له، فقالت: "غسلت رجلي، فكيف أوسخهما. خلعت ثوبي، فكيف ألبسه"؟!... هكذا تتقدم العوائق لتقسي القلب كل عمل من أعمال الروح يقف ضده عائق أو عوائق: الصوم أمامه المرض، والسهر أمامه التعب، والصلاة أمامها عدم الرغبة، والاعتراف أمامه الخجل، والتناول أمامه عدم الاستعداد أو عدم الاستحقاق...

وقد يعتذر الإنسان، عن كل هذه الوسائط الروحية، بأن الله إله قلوب، ولا لزوم لكل هذا!!! وإن الله يعرف ضعف طبيعتنا، وإن الروح نشيط ولكن الجسد ضعيف!!

ثلاثة أشخاص دعاهم الرب لخدمته، فاعتذر أحدهم بأنه سيدفن أباه، والآخر بأنه تزوج، والثالث بأنه اشترى خمسة أزواج بقر ويريد أن يختبرها... مجرد أعذار.

الإنسان القوي لا يهتم بالعوائق، بل ينتصر عليها...

تعود الخطية:

الإنسان في بدء الخطية يشمئز أو يخاف منها. ولكنه كلما يتعوّدها، يتقسي قلبه، فتسهل عليه ويشربها كالماء، لا يصحو ضميره، ولا يحتج فكره.

تعود الوسائط الروحية:

قد يعتاد الإنسان بعض الوسائط الروحية، بطريقة تفقد هيبتها وتأثيرها فالكنيسة مثلاً من كثرة تواجده فيها، يتكلم فيها ويضحك، ويتمشى ويجري وينادي غيره، وينسى أنها كنيسة. كذلك قد يفقد هيئة الهيكل بكثرة دخوله، وهيبة الأسرار بكثرة تناوله، وهيبة الاعتراف والكهنوت بمصادقة الكهنوت!

إنسان يتعاطى دواءً بكثرة، فيفقد الدواء تأثيره عليه!

وكما يتقسي الجسم فلا يستجيب للدواء، يتقسي القلب فلا يستجيب لكل وسائط الروح. تصبح عادية بلا تأثير...

أسباب أخرى:

+ قد تأتي قسوة القلب، من أن القسوة طبيعة فيه

كالأرض الصخرية التي لا تستجيب بطبيعتها لبذر أو ري...

+ وقد يتقسي القلب للاستهانة بلطف الله وطول أناته:

يقول الرسول (رو2: 4، 5) "أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته، غير عالم أن لطف الله، إنما يفتادك إلى التوبة. ولكنك من أجل قساوتك وقلبك غير التائب، تذخر لنفسك غضبًا في يوم الغضب.

يخطئ إنسان، ويظن أن غضب الله سيحل عليه بسبب خطيئته. وإذ لا يحدث له شيء، يفقد مخافته، ويستمرئ الخطية، ويتقسي قلبه، فيستمر! أكان الأفضل أن يعاقب؟!

إنسان يحلف على الإنجيل كذبًا، ويضعه على عينيه، ولا يصيب عينيه شيء، فيستهين بالإنجيل والكذب والحلفان، ويتقسي قلبه، ولا يعود يخاف من المقدسات!

كان يمكن أن يضربه الله، ولكنه أطال عليه أناته، فيتقسي قلبه، ويستهين بطول أناة الله...! هل العقوبة لهؤلاء أفضل؟.